

## الأدب الشعبي ودوره في بناء الهوية

بوخالفة إبراهيم .

المركز الجامعي تيبازة (الجزائر)

الملخص:

الأدب الشعبي هو شكلٌ من أشكال التواصل الاجتماعي، يعبر عن رغبة محمومة في بناء هوية ثقافية جماعية قادرة على حفظ وحدة الجماعة وقيمها ونمط عيشها وعاداتها وتقاليدها. وإنَّ أشكال التعبير في هذا الأدب من التنوع والتعدد ما يجعلها على درجة عالية من الرسوخ والثبات في مقاومة كلِّ أشكال الحداثة الغربية الزاحفة والمسخ الثقافي الذي تمثله هذه الحداثة التي لا تعرف التوقف عند حدود معيّنة.

وما من أمة إلا وتملك ثقافة شعبية تحفظ ماضيها وتراثها الثقافي وتعكس رؤيتها للعالم ونظامها الأخلاقي ومرجعيتها الفكرية التي تنبع من أصولها وتعبر عن قيم أسلافها الأوائل الذين يحظون بالتقديس والتمجيد والتبجيل في كل الثقافات ولدى كل الجماعات الثقافية.

في هذه الورقة العلمية نسعى لبيان دور الأدب الشعبي بكل أنماطه التعبيرية في بناء الهوية الثقافية للمجتمع وبلورة نظامه الأخلاقي وفلسفته الاجتماعية..

الكلمات المفتاحية الأدب الشعبي؛ الهوية الثقافية؛ التراث؛ المسخ الثقافي؛ الحداثة..

Abstract:

### *Popular literature and its role in building identity* Abstract.

Popular literature is a form of social communication that expresses a fervent desire to build a collective cultural identity capable of preserving the group's unity, values, lifestyle, customs and traditions. The forms of expression in this literature are of diversity and plurality, which makes them at a high level of firmness and steadfastness in resisting all forms of creeping Western modernity and the cultural monstrosity represented by this modernity that does not know stopping at certain limits.

. There is no nation without a folk culture that preserves its past and cultural heritage and reflects its vision of the world, its moral system, and its intellectual reference that stems from its origins and expresses the values of its early ancestors who are revered, glorified and revered in all cultures and among all cultural groups.

*In this scientific paper, we seek to clarify the role of popular literature, with all its expressive styles, in building the cultural identity of society and crystallizing its moral system and social philosophy..abstract, the goal and significance of the research are indicated within 100 words) Place the abstract here (in the abstract, the goal and significance of the research are indicated within 100 words)*

**Key words:** Folk literature; Cultural identity; Heritage; Cultural metamorphosis; Modernity...

\*\*\* \*\*

## مقدمة:

الأمم سرديات ومرويات وقصص وأيام وأثار غابرة وباقية، وما من أمة لا تملك ذاكرة ثقافية، بإمكانها المحافظة على الأرض التي تشهد على ميلادها، وتحمل أبقالها وتردد أناسيها وتبعث الحياة في الأسلاف الغابرين. إن تاريخ أي أمة لا يمكنه أن يحفظ الوجود الروحي لأفرادها وجماعاتها، إلا إذا كان يكتب من الأسفل، من عمق الأرض إلى أعلاها. إن التاريخ الذي تخطه المؤسسة لا يطال أبعاد الإنسان الأربعة. فقط الواجهة العليا هي التي تكشف عن نفسها. أما بقية الأبعاد فتظل مكتومة إلى أن يغمرها النسيان، وتبدد الحداثة المظفرة معالمها. إن ما تكشف عنه حكايات "ألف ليلة وليلة" -على بيل المثال- لا يمكن التماسه في الثقافة الرسمية للعرب والمسلمين في ذلك التاريخ، وهو من الأهمية بمكان، بحيث يتعدّر التماس تمثيل كامل للذات العربية في ظل غياب هذا المؤلف الشعبي بالغ الأهمية. إن ما نُلقيه في الأدب الرسمي هو سرديات الأنظمة الحاكمة والملوك والأمراء والشخصيات النافذة، أما الفئات المسحوقة، والمهمشة فلا تجد منبرا يُبلّغ صوتها ويحمل أنفاسها إلا تلك الممارسات الشعبية الجمالية، كالحكي والرواية الشعبية، والمقامة، وغير ذلك مما ينتجه المسحوقون والأقلويون

من أجل ذلك تحفي الشعوب بترائها الشعبي وبمروياتها الحميمة، وبمعالمها الثقافية، تلك التي تشكل في مجموعها ذاكرة شعبية نابضة، تستحضر النصوص الثقافية الماضية لتؤسس على ضوئها وجودا متجددا يتمتع بالقدرة على البقاء ومقاومة الغزو الثقافي 1.2

الذي تبشّر به العولمة المتوحشة. إن مستقبل الأمة يتغذى من رصيدها الفكري والجمالي، ويستمد أسباب القوة والمناعة من الماضي البعيد والقريب. يتجه عالمنا اليوم نحو تشميل الثقافة، واستئناف مشروع التنوير المتمثل في عولمة الكون، وإنشاء حضارة عالمية ذات بعد إنساني، ولكن هذه المرة ليس بزعامة أوروبا، ولكن بزعامة أمريكا، تلك القوة الأسطورية التي تدعي القدرة على امتلاك العالم وترويضه، وتدجينه، من أجل استرقاقه، بينما يعجز جنودها على مقاومة الجماعات المتمردة على الحداثة الغربية، فيسلمون بذلك وينسحبون على إيقاع هزيمة صامتة. غير أنهم يحاولون أن يجتروا غرورهم في شرق المتوسط، في محاولة لتركيع بقايا قوة ناهضة، تروم انبعاث مجدها في هذه الورقة العلمية نسعى إلى التعرف على التراث الشعبي بوصفه خزاناً لهوية الأمة، وحافظاً لمعالمها الثقافية، وهو الذي يمدّها بأسباب البقاء، بل إن قيم الجماعات الثقافية مهما كان انتماءها الإيديولوجي لا يمكنها أن تمتلك وهجها الأخلاقي إلا إذا كانت مشبعة بروح المرويات الشعبية، وحكايا الأسلاف وممارساتهم الدينية والعاداتية. كيف يمكن للأدب الشعبي أن يحافظ على هوية الأمة؟ كيف يمكنه أن يشكل الجدار المانع ضد سيول العولمة والدوبان في الآخر؟ كيف للأدب الشعبي بمختلف أشكاله الجمالية أن يكون مصدر قوة حضارية، تلك هي أسئلة هذه المداخلة إن شاء الله..

الأدب الشعبي بوصفه تراثاً إنسانياً.

إذا كان السرد يعبر عن النخبة العالمية، والأدب الرسمي، الذي يصنع القيم وبشكل الرأي العام ومعايير الأحكام الأخلاقية والجمالية فإن المرويات الشفهية التي يتواضع الناس على تسميتها "الأدب الشعبي"، أو الفولكلور، تعلمنا كيف نعيش تلك القيم ونتذوق جمالياتها ونتحسس عمقها الإنساني العابر للقوميات وللحدود اللغوية والجغرافية. إنه الأدب الذي يعكس الجانب الروحي في الإنسان، ويحتفي بأكثر اللحظات صدقا في الموقف من الحياة وقضايا الوجود بشكل عام. وفي أسط تعريف له أنه "دراسة حياة الإنسان وما يتعلق به كفرد وكجماعة من علوم وفنون وآداب، وعقائد وعادات وأوهام؛ فهو حضارة المجموعة البشرية في إقليم من الأقاليم وتاريخ هذه المجموعة في أخص صفاتها البشرية، لا تاريخ مظاهرها العارضة من ملوك وحروب"<sup>1</sup>. يقصي الكفكاف من هذا التعريف الجامع تاريخ الملوك ومظاهر الحروب. فتلک الموضوعات لا تُلْفِيها إلا في التاريخ الرسمي والمدون من قبل المؤسسة، بينما التراث الشعبي هو من إنتاج الذاكرة وينتقل عن طريق المشافهة، لأنه التعبير على الهوية الجماعية للجماعة البشرية، يعكس قيمها الروحية. أما التاريخ الرسمي فيعكس علاقات القوة.

لم يكن الأدب الشعبي في التراث النقدي العربي القديم يحظى بأدنى التفاتة بوصفه محل اهتمام السوق من الناس، الذين لا قيمة لهم في سلم التراتب الاجتماعي. بتعبير آخر، كان الأدب

الشعبي أو المرويات الشفهية تعبر عن الفئات الدنيا من المجتمع، تلك التي أقصتها الثقافة العالمية والمؤسسة الرسمي. الأدب الشعبي هو المادة الأكثر استهلاكاً من قبل الجمهور\* الذي لا يؤبه له، ويُنظر له نظرة دونية. من ذلك مثلاً المقامة البغدادية وحكايات ألف ليلة وليلة، وسيرة بني هلال، كل ذلك لم يكن محل احتفاء المؤسسة الثقافية الرسمية التي تُقصر تقديرها على الأدب الذي يمثل الأرستقراطية العربية، والطبقة العليا من المجتمع. ويعود الفضل في إعادة النظر في مثل هذا الموقف المتحيز من قبل المؤسسة الثقافية العربية للحركة الاستشراقية التي درست الثقافة العربية الشعبية، وأولتها اهتماماً بالغاً، وروجت لها في لغاتها القومية، لما تمثله من ثروة فكرية وأدبية لا نجد لها مثيلاً في الثقافة العالمية. هذا الموقف من قبل مؤسسة الاستشراق لفت انتباه النقد العربي الحديث، واضطره إلى إعادة النظر في التراث الشعبي في الثقافة العربية القديمة والحديثة. وانطلاقاً من هذه الرؤية الجديدة، تكون إدراك علمي وإنساني لهذا النوع من الأدب يستوحي العلوم الإنسانية القريبة منه، والمتداخلة معه أحياناً، على غرار الأنثروبولوجيا والثنوغرافيا، وعلم الاجتماع والفلسفة وعلم النفس. كل هذه العلوم المتداخلة والمتقاطعة مع الأدب الشعبي أحدثت ثورة حقيقية في مجال البحوث في حقل الأدب الشعبي، وفائض المعرفة المنتجة من خلال تلك البحوث مدهشة للغاية. ومن هنا لا بدّ من التأكيد على حقيقتين، أولاهما أنّ لكلّ أمة ثقافتان، إحداها رسمية،

انتجها الكتاب والمثقفون والمبدعون، وتحظى باعتراف المؤسسة السياسية ودعمها، فأعمالها تُشَرُّ ويُروَّجُ لها، ويَحْتَفَى بها إعلامياً وسياسياً وتربوياً. ألا نرى أن الكتاب المدرسي يستمدّ نصوصه من ذلك التراث المكتوب الذي يُمثِّلُ مركز الثقافة الوطنية. أمّا الحقيقة الثانية فهي وجود نوع آخر من الثقافة الوطنية، لا يقلُّ أهميّة عن الثقافة العالمية، وهو التراث الشعبي أو الأدب الشعبي، وهو "مدينٌ إلى عالمين مختلفين، عالم الوعي والإدراك والقصد والقصدية، عالم العقل والعقلاني، عالم اللاشعور/اللاوعي، عالم يأتي من أدغال العقل البشري (.....) وهذا لا يعني الجنون ولا اللاعقلانية واللاقصدية"<sup>2</sup>. ولكنه يعني أنّ هذا الأدب الشفهي، اللغوي وغير اللغوي، أكثر التصاقاً بالذات، وأصدق تعبيراً عن استيهاماتها ورغباتها الأكثر حميمية. إنّه أدبٌ حَمالٌ لقيم الجماعة التي أنتجته ولنمط حياتها الأثير، الموصول بطفولتها الأولى. الأدب الشعبي، وإن كان يمثِّلُ هامش الثقافة الوطنية فهو المركز من هذا الهامش، لأنه اليوم أضحي محلّ احتفاء من كلّ الطبقات الاجتماعية، ومحل استقطاب لكل المنشغلين بحقل الدراسات الثقافية. بل إن الأدب الشعبي أضحي يستقطبُ السياحة الأجنبية لما يمثِّله من فرجة مشهّدة للسياح الأجانب المتعطّشين للغريب المدهش، ذلك المسكوت عنه الذي لا يظهر للناظرين على السطح، من خلال الإعلام المفتوح على العالم. كما أنّ للأدب الشعبي أهمية ثقافية أخرى تعزّز من وجوده وتأثيره، وتجعله أكثر التصاقاً

بالشخصية الوطنية. تكمن هذه الأهمية في أنّه يُمَدّ المسرح والسرد الروائي بالمادّة الخام التي تُحوَّلُ إلى إنتاج من طبعة ثانية. فالمرحج المسرحي على سبيل المثال يستقي بعض المواد الشعبية من أجل تطعيم المادّة الحكائيّة أو الحوارية، كما أن الكاتب الروائي يستدعي بعض الممارسات الشعبية في سرده الروائي من أجل صناعة برامج سردية خادمة، ومن أجل أهداف جمالية، يداري بها أنساقاً ثقافية يُرادُّ لها أن تكون مضمرة.

توجد خصائص سيكولوجية في الجوهر من شخصية الإنسان بصرف النظر عن لغته القومية وبيئته الثقافية وتحيزات الإيديولوجية. إنّ للبشر حاجات عامة مشتركة، غير خاضعة للانتماء السياسي والقومي. فالحاجة إلى الضحك مثلاً هي غريزة بشرية، مهما كانت دوافع هذا الضحك - وتلك مسألة أخرى - كما أنّ التعبير عن الضحك يتم بطرائق مختلفة. الضحك إذا لغة كونية، كما أن الصياح في حالة الانفعال هو الآخر لغة كونية. كثيرٌ من مظاهر السلوك الثقافي هو نقطة التقاء بين كافة الشعوب والأمم. هذه الحقائق الانثروبولوجية تدفعنا إلى الجزم بأنّ الأدب الشعبي هو تراثٌ عالمي، فلكل أمة حظٌّ وفير منه، وتعبيرات مشتركة عن انفعالات عامّة. وقد أرجع الباحثون عالميّة الأدب الشعبي إلى أسباب أهمّها تشابه الحياة الشعبية في العالم كلّ من حيث النشأة ووحدة المشاعر الإنسانية؛ فهي واحدة لدى جميع الشعوب بغض النظر عن العرق والانتماء القومي أو السياسي. ثمّ غنّ

الشعبية. وفي عصرنا الحديث، ومع حالة الانفتاح المترتبة عن الظاهرة الاستعمارية، وعن البحوث الاستشراقية والرحلات من الشرق إلى الغرب وفي الاتجاه المعاكس. وصارت كل أمة تملك تراثا شعبيا يعبر عن هويتها الخاصة ويميزها عن بقية الشعوب. وقد غدا هذا التراث الشعبي مدخلا من مداخل السياحة الأجنبية، وموضوع فرجة للغرباء والأجانب، ومصدر متعة جمالية. إن كل شعب يباهي بتراثه، ويسعى إلى تصديره وعولمته، وأكثر من ذلك، فإن هذا التراث أصبح مصدر نهاء اقتصادي، فضلا عن كونه تعبيرا عن السيادة الوطنية للشعوب.

إن من خصائص الأدب الشعبي أنه نتاج جماعات بشرية، ومنتجه غير متعين لا في الزمان ولا في المكان. هذه العمومية هي مصدر إنسانيته. إنه "ينبعث من عمل أجيال عديدة من البشرية، من ضرورات حياتها وعلاقاتها، من أفراحها وأحزانها؛ وأما أساسه العريض فقرب من الأرض التي تشقها الفؤوس، وأما شكله النهائي فمن صنع الجماهير المغمورة المجهولة الذين يعيشون لصق الواقع"<sup>3</sup>. الأدب الشعبي من هذا الأفق هو تعبير عن آلام المسحوقين، وأوجاع المكرويين الذين يستخرجون رغبتهم من تحت التراب، ويسقونه بعرقهم. كان الفلاحون القدماء ينظمون الأهازيج والأناشيد الشعبية عند كل موسم حصاد، من أجل تحفيز العمال وتشجيعهم، وإغرائهم بالحصاد الوافر. ومن رحم هذه الطقوس تتشكل عادات وتقاليد، يلتزم بمقتضاها أفراد القبيلة وقيموها المأدبات

الشعرب قد تلتقي في كثير من العادات والتقاليد، خصوصا تلك التي تعبر عن عاطفة إنسانية. فنظام الحياة الأسرية على سبيل المثال، وتشابه الممنوع والمباح في كثير من الثقافات متشابهة. وخصوصا لدى المجتمعات البدائية، حيث أن الحاجة إلى الاطمئنان والأمن من المخاطر التي تهدد الحياة دفعت بالإنسان إلى اتخاذ آلهة متعددة من مظاهر الطبيعة ذات القوة الميتافيزيقية، والتماس العون والحماية منها. وقد انبثق عن هذه الحاجة للتدين تشكّل طقوس تعبدية نهطية لدى كثير من الشعوب. ومن رحمها نشأت حزمة من العادات والتقاليد بقيت مترسبة في اللاوعي الجمعي لكثير من الجماعات الإنسانية. من هذه الناحية، يذهب الكثير من المهتمين بالشأن الثقافي أن الأدب الشعبي هو تراث إنساني وعالمي. غير أن عالميته لا تعني نفي الاختلاف، أكثر مما تعني الطابع الكوني والإنساني لهذا التراث. فالرقص على سبيل المثال طقس شعبي تمارسه كل الشعوب، وهو جملة من الحركات ذات الإيقاع المتراتب والمنسجم، يعبر عن انفعالات شتى، كالفرح والرغبة الجنسية، أو إبداء القوة والثورة على وضع ما. كما تعبر الأغنية الشعبية عن الحياة المشتركة والتضامن الشعبي الحميم، والرغبة في المشاركة العاطفية وقبول الآخر، والسلم الاجتماعي. كما قد تعبر الأغنية عن عاطفة فردية كالحب والحنين إلى البعيد الغائب، كما قد تعبر عن عاطفة دينية مشوبة. وكلها مشاعر إنسانية. ولقد عزز التواصل بين الأمم قديما وحديثا على عولمة الممارسات

والأفراح والمسرّات ويحتفلون بالختان الجماعي لصغارهم أو بزواج شبابهم الجماعي. كان من شأن هذه العادات والطقوس أن تميّن العلاقات الاجتماعية وتعزّز روح التضامن بين أفراد القبيلة، كما أنها تحافظ على قيم الجماعة، وأسس تماسكها، وتلاحمها واستنهاضها ضدّ كلّ الأخطار التي تهدّدها في كيانها الاجتماعي والسياسي أو الروحي. وكون الأدب الشعبي لا يتّخذ من الفصحى أداة للتعبير لا يعيبه، ولا يهمله، ولا يعزله عن الحياة الاقتصادية والاجتماعية. وإذا كان الأدب الرسمي يعبرّ باللغة الفصحى حصراً، فإنّ لغات الأدب الشعبي كثيرة؛ فالعاميّة لغة للتعبير أقرب إلى عامّة الناس، يتلقاها المثقفون والبسطاء من الناس. والرقص لغة شعبية تعبر عن موضوعاتها بالحركات الفنية، وبالجسد، وبعض طقوس الرياضة، كالفروسية مثلاً، هي أيضاً لغة التراث الشعبي، والحكي والمشافهة هما من أساليب التعبير في الأدب الشعبي. أمّا أجناس هذا الأدب فهي كثيرة ومتنوعة. منها الحكاية والأسطورة والخرافة، والنكتة والمثال والنادرة والأغنية، واللّغز. كلّ ذلك يحتوي التراث الشعبي بمختلف موضوعاته وتيمات وإشكالاته، ووظائفه. ولا يزال هذا الأدب يحتلّ المنزل الأثيرة في تراث الشعوب الحديثة والمعاصرة رغم الحداثة وما بعدها.

#### أشكال التعبير في الأدب الشعبي:

لا يقلّ الأدب الشعبي أهميّة عن الأدب الرّسمي من حيث أشكال التّعبير، وأنماط

التواصل مع الغير. بل إنه يتفوّق عليه في القدرة على تجديد أنماطه وأساليبه، من أجل إنتاج الأفكار ومقومات الوجود الدائم والمنسجم مع الطّبيعة والكون بشكل عام. في هذا المبحث نحاول أن نحصي أشكال التعبير الفني في الأدب الشعبي، والموضوعات التي تنتجها هذه الأشكال والقضايا التي تطرحها. ولعلّ أهمّ أشكال التعبير في هذا السياق هي الحكاية الشعبية بنوعها والأغنية الشعبيّة، والأسطورة والمثل الشعبي واللغز والنكتة. هذه أهمّ الأشكال التعبيرية في الأدب الشعبي. غير أننا نملك أنشطة أخرى غير لغوية وتدخل ضمن التراث الشعبي في شقّه الفني، من ذلك مثلاً الرقص والفرجة، وهي شكل تعبيري ما قبل مسرحي، تواجد مع الحقبة الكولونياليّة بالجزائر، وكان له دورٌ في بثّ الوعي الثوري في الأوساط الشعبيّة.

#### أ- الأسطورة:

هي حكاية مجهولة المؤلف تسرد أحداث ماورائية وأبطالها من الآلهة وتتميز عن الأجناس المجاورة لها مثل الحكاية الخرافية بأنها مقدسة. وقد تكون قصّة خرافية تروم تفسير ظواهر كونيّة في ظلّ غياب التفسير العلمي الحديث. فهي إذا شكل من أشكال التفكير ما قبل العلمي، في العصور البدائية للإنسان. وتمتّع الأسطورة بمنطقٍ داخلي يؤهلها لتكون المعرفة العليا للمجتمعات القديمة. وهي من ناحية أخرى "قصص وظيفتها دعم نظام القيم في المجتمع الخاص بها؛ (.....)، الأساطير تثمن ما يفكر فيه

الشَّعْبُ، وما يعتقد ويعتبر أنه يستحقّ النقل"<sup>4</sup>. هي إذا الطّريقة المتاحة لتفسير الظواهر الكونيّة والسيطرة عليها معرفياً، والجزم بأنّها المعرفة الصحيحة بالكون. وانطلاقاً من هذه المعرفة يصارُ إلى تأسيس نظام قيم يحتفي بالذّات وبالجماعة المندمجة مع الطّبيعة.

تحدث السير جيمس فريزر في الغصن الذهبي عما أسماه "باللاوعي الجمعي الذي تستقر فيه الصور البدائية أو النماذج العليا (archetypes) التي تمثل بدورها رواسب نفسية لتجارب الإنسان البدائي تعبر عنها كما يقول يونج الأساطير والأحلام والتخيلات الفردية والأديان وكذلك الأعمال الأدبيّة لدى الإنسان المتحضر"<sup>5</sup>. لقد أظهرت الدراسات الانثروبولوجيّة والفلسفيّة الحديثة الأهميّة القصوى للأساطير المؤسّسة للثقافات الوطنيّة. ويجب التنبيه هنا، أنّ هذه الأساطير لا تستمدّ أهميتها وعمقها من عصرنا نحن، ولكن من العصر الذي أنتجت فيه. فقد كانت هي المعرفة المتاحة بالكون وبالطّبيعة. وكان سلوك البشر منسجماً مع معطيات تلك المعرفة التي نصفها بالأسطوريّة مقارنة بها وصل إليه عقلنا، وما أحدثنا من ثورات علمية مذهلة. هناك أنساق فكرية ونظام قيم ترسخ بفعل التعايش مع تلك الأساطير، ومن بين تلك القيم المترسّبة مفهوم الخير والشر والقبح والجمال والله الخالق، والموت والبعث، والخلود والفناء وما شاكل ذلك من مبادئ وأفكار، قد ترسخت تلك الأفكار بصفاتها نماذج ثقافيّة عليا توجّه سلوك

الناس وتصل ماضيهم السحيق بحاضرهم. ومن هنا، فإنّ الأشكال الجماليّة الشعبيّة التي يمارسها عامّة الناس من مرويّات وأغاني شعبيّة وحكايات خرافيّة تدفع بنا إلى الحفر عميقاً في الذاكرة الثقافيّة لتلك الجماعة من أجل مساءلتها حول ماضيها وراهنها، ومستقبلها. يمكننا أن نكتشف بقايا التفكير الأسطوري في ثقافة الحاضر، كما يمكننا أن نستشف قيم الغد انطلاقاً من اللحظة الراهنة التي تحمل في رحمها عبق التاريخ.

#### ب-الحكاية:

أضحت الحكاية الشعبيّة ضمن اهتمام العلوم الإنسانيّة لها تعغني به من أبعاد إنسانيّة وتاريخيّة. وتندرج ضمن هذا المسمّى أنواع كثيرة من القصص الشفوي القصير ذي المنشأ الشعبي أو ما كُتب على شاكلته؛ إذا نظرنا إلى حكايات "ألف ليلة وليلة" وجدنا مصطلح حكاية مرادفاً ل: سيرة؛ حكاية؛ نادرة؛ قصّة؛ "ووجدنا الحكاية تستعمل على ألسنة الرواة للدلالة على حكايات شخصياتها تاريخيّة، فهي قريبة من الأخبار، والدلالة على حكايات جامعة بين عالم الواقع وعالم السحر والعجائب، شأن الخرافات"<sup>6</sup>. وقد نبّه الدارسون لهذا الشأن لتعدد أنواع الحكاية، فمنها ما هو واقعي ومنها ما هو خيالي، فذكروا ما هو خيالي، وما هو حكاية غرامية ومنها ما هو نادرة؛ كما ذكروا الحكايات التعليميّة والصوفيّة والبطوليّة الممزوجة من حقيقة وخيال. فقصص الصحابي التاريخي علي بن أبي طالب مثلاً تحولت إلى حكايات خوارق



فوق-بشرية. والقيمة التربوية والتعليمية لمثل هذه الحكايات لا تخفى على أحد. وسنعرض لذلك في الفصل الأخير من هذه الدراسة. وفي التراث الغربي أيضا ظل مصطلح الخرافة يراوح بين الدلالة الشعبية (conte populaire) والدلالة الأدبية (conte littéraire) ومن الأدبية تلك التي ألفها شارل برو (Charle Perrault)، واستفاد في ذلك من عجائبية الحكاية الشعبية وعوالمها المدهشة، والمثيرة للخيال.

الحكاية الشعبية تُصنّف إلى أصناف عديدة من حيث الموضوعات والشخصيات. فمنها الحكاية على لسان الحيوانات، التي كانت قديما تُعدّ من الأدب الرفيع وكانت من تأليف ابن المقفع، ومنه انتقلت إلى الأدب الغربي، وتحديدًا إلى لافونتان. ومنها أيضا الحكايات الدنيئة والحكايات الهزلية، التي تُروى للتسلية والتندر. "ومن الثابت أنّ الحكاية الشعبية بأنواعها المختلفة موعلة في القدم، ولم تخل ثقافة من الثقافات من السرد الشفوي ممارسة اجتماعية يومية في المجالس العائلية والقبلية أو الاحتفالية في الساحات العامة ومراكز العبادة وغيرها"<sup>7</sup>. وكونها موجودة في كل الثقافات وفي كل العصور وكل المجتمعات يُعزّز من قولنا أنّ الأدب الشعبي وليس الحكاية فقط هو تراث عالمي وإنساني، لما فيه من قيم إنسانية شمولية ترتقي إلى أعلى المراتب العقلية للإنسان، كما تنخفض إلى الطبقات السفلى لمناطق اللاشعور، التي يبدو أنها منسية، ولكنها قابلة للانبعاث من خلال الحكاية الشعبية. ولكن لماذا الحكاية

الشعبية تحديدًا؟ هذا النمط من الحكاية لا يخضع لرقابة عليا، ولا لضوابط أخلاقية مانعة أو قاصمة، أو رادعة. ولكنه نشاط عفوي وبسيط، وبقدر ما هو كذلك، هو غنيّ غنى حياة الفلاحين في مزارعهم، وحياة الرعاة في البراري، وحياة الأطفال في الفضاء المفتوح. لقد أدرك الرجل العامي البسيط ما في الحكاية من خصوصية وحميمية، تجعل حياته ممتلئة، فجعل أسماؤه في الساحات العامة مناسبة للسمر والقص. وهو مساحة للإفلات من انضباط الحياة الجادة والصرامة والرقابة الدائرية. إنّ الحكاية الشعبية خزّانٌ لمشاعر الفئات الدنيا من المجتمع، وتجاربهم العاطفية، واستيهاماتهم، وأحلامهم، ولذلك فهي كثيرا ما تمارس في الليل، حيث الكون كلّ هاجع وساكن، ورقابة المجتمع غائبة، وضجيج النهار وصخبه قد تركا مكانهما لسهر الليالي.

#### النكتة:

النكتة هي شكلٌ من أشكال الأدب الشعبي، لا يخلو منها أيّ مجتمع. ومن ناحية اقتصاد اللغة، فهي بنية لغوية مقتضبة ومركزة ولكنها مشبعة بالدلالات المتضاربة، والمثيرة للجدل. إنها شكل فني من أشكال التعبير في الأدب الشعبي ذات علاقة عضوية بظاهرة الضحك والفكاهة، وهي من المفارقات الاجتماعية، لأنها سلوك لغوي تقويضي يهاجم مظاهر اجتماعية شاذة. "النكتة الشعبية بوعيتها الاجتماعيّة تمتاز بأسلوبها وبلاغتها، التي تختلف عن أساليب الأدب الرسمي وبلاغته ولكنها تشكل مزاج

الطبقات الشعبية، وتصور مشاعرها، وتصف الحياة الاجتماعية التي طبعَتْ ذوقها وتصوراتها بطابع البساطة والقناعة؛ لذلك من سماتها التعميم<sup>8</sup>. من ناحية أخرى ترفض النكتة الانضباط بأيّ منطق اجتماعي، بما أنها تتميز بعنصري المفاجأة والمفارقة، وإثارة الضحك والسخرية ممّا هو قائمٌ. من هذا المنظور الاجتماعي فهي مقاومة لكل الأوضاع غير الطبيعيّة التي يعجز الأفراد عن تغييرها بالقوّة الماديّة، أو بالأساليب الطبيعيّة، فيلجأون إلى التغير من خلال النكتة. إنها ذات وظيفة اجتماعيّة ونفسية في ذات الوقت، من حيث أنها تنفّس عن الغضب الاجتماعي والكبت، وتحول القصور الماديّ إلى قدرة تقويضيّة رهيبة. وردّ الفعل.

نكتفي بهذه الأجناس الأدبيّة التي تنضوي تحت مسمّى الأدب الشعبي، مع الإقرار أنه توجد أجناسٌ أخرى كثيرة، لغويّة وغير لغويّة، ولكن التي ورد ذكرها هي أشهرها، وأسرعها انتشارا لكونها لا تمسّ التابوهات الأخلاقيّة، أو المعتقدات الدنيّة؛ بل تكتفي بالنقد الاجتماعي والتنفيس عن الكبت بكلّ مظهراته، السياسيّة والاجتماعيّة. فالرقص على سبيل المثال هو من مظاهر التعبير الشعبي غير اللغوي، غير أنه يصطدمُ في بعض المجتمعات المتديّنة بالوابع الأخلاقي. كما أنّ مدلوله الثقافي يختلف من طبقة اجتماعيّة على أخرى. فالرقص لدى القبائل الإفريقيّة يختلف من حيث المدلول عن نظيره

الطبقات الشعبية، وتصور مشاعرها، وتصف الحياة الاجتماعية التي طبعَتْ ذوقها وتصوراتها بطابع البساطة والقناعة؛ لذلك من سماتها التعميم<sup>8</sup>. من ناحية أخرى ترفض النكتة الانضباط بأيّ منطق اجتماعي، بما أنها تتميز بعنصري المفاجأة والمفارقة، وإثارة الضحك والسخرية ممّا هو قائمٌ. من هذا المنظور الاجتماعي فهي مقاومة لكل الأوضاع غير الطبيعيّة التي يعجز الأفراد عن تغييرها بالقوّة الماديّة، أو بالأساليب الطبيعيّة، فيلجأون إلى التغير من خلال النكتة. إنها ذات وظيفة اجتماعيّة ونفسية في ذات الوقت، من حيث أنها تنفّس عن الغضب الاجتماعي والكبت، وتحول القصور الماديّ إلى قدرة تقويضيّة رهيبة.

من خصائص النكتة أنها إنتاج ثقافي جماعي سريع الانتشار بين جميع الطبقات الاجتماعية، فلا حدود طبقية أو أخلاقيّة أو نفسية تقف في وجهها؛ بل إنّنا نجد عامّة النا تلتفّفها بسرعة وتعمل على الترويج لها وشحنها بطاقة نقدية مهيبّة. إنّ دلالتها الاجتماعية هي التي "تضمن لها الدبوع والانتشار أكثر في الأوساط الشعبيّة"<sup>9</sup>. كما أن طابعها الهزلي والمقاوم لكل مقاومة مضادة يسهل من الانتشار والرواج السريع. إنّ الكبت الاجتماعي الذي تكابده الطبقات المحرومة، والتي تعجزُ عن تغيير وضعها في المجتمعات الخاضعة للاستبداد السياسي يجعل من النكتة حاجة نفسيّة ومطلبا ثقافيا لتلك الفئات الاجتماعية الأقلويّة. بينما يُفسّرُ الإقبال على النكتة من قبل الطبقات

في المجتمعات الراقية والمتحضرة، حيث يقترب بالذائقة الفنية، وبجمال الجسد وأناقته.

الأغنية الشعبية هي الأخرى شكل من أشكال التعبير الفني في الأدب الشعبي. ولا تقتصر وظيفتها على الإمتاع والمؤانسة، بل تطال الحياة الاجتماعية والثقافية عموماً. والتغني بأمجاد الأمة وبأيامها ومآثرها.

### الأدب الشعبي والهوية الثقافية:

العلاقة بين الأدب الشعبي والهوية الثقافية هي العلاقة بين الثقافة وموضوعاتها. فالأدب يتخذ من الإنسان وأشكال وجوده الاجتماعي والهادي موضوعاً أثراً لديه. ومن هنا، فإن العلاقة بينهما هي علاقة الاسم بالمسمى، أو علاقة المبنى بالمعنى. من الأهمية بمكان أن ننظر بعجالة في دلالات الهوية الثقافية؛ ماذا يعني هذا المصطلح، وما هي تشعباته وتعلقاته المعرفية مع العلوم الإنسانية الأخرى؟ "ينظر إلى الهوية على أنها الخصائص التي تميز فرداً عن غيره أو جماعة عن غيرها، وتمثل انعكاساً لواقع ما ولتصورات معينة"<sup>10</sup>. غير أن الهوية كما يجادل نقاد الثقافة ليست مشروعاً منجزاً، يتجلى في حالة ثبات، واستقرار، إنه مشروع تاريخي، يتحول بتحول الأوضاع والمواقع الطبقة والمؤثرات الطبقة والإيديولوجية. إن "إشكالية البحث عن الهوية ليست إلا أطروحة للتحويل الحضاري من أجل تأكيد الذات، كونها مفتاح الدخول إلى عوالم الفرد، وتحديد انتمائه"<sup>11</sup>. إن التماس تعريف ثابت وجوهري للهوية أمر

متعذر. فهي لا تنفك تتحول وتتغير، وتتلون بلون العصر والبيئة والمعطى الثقافي والإيديولوجي والسياسي والفكري. بسبب ذلك كانت الهوية الثقافية الجماعية سلسلة من التحولات التاريخية للجماعة، يمكن متابعتها من خلال أشكال التعبير الثقافي بكل تضاريسه وانكساراته وتعلقاته. هل يمكن للإنسان أن يكون موضوع معرفة؟ الإجابة عن هذا السؤال الفلسفي تفتح أفقاً للدراسة الخصبة بخصوص العلاقة بين الأدب الشعبي والهوية الثقافية. فما ينتج من أدب ومن فلسفات وأفكار، يمكنه أن يكون تعبيراً علمياً عن كينونته، ووجوده المادي والأدبي، ونظامه الثقافي وخياراته الإيديولوجية وعواطفه تجاه العالم وتجاه الذات.

الهوية الفردية من المنظور الفلسفي "مكونة من خصائص الشخص المطلقة المشتملة على صفاته الجوهرية التي تجعله مميزاً عن غيره تميزاً يكسبه فرادته وخصوصيته ويحدد الصورة التي يحملها في نفسه عن نفسه، والتي ستؤثر بطريقة أو بأخرى في تحديد المنظور الذي يعتمد عليه لإحالة ذاته إحالة موضوعية في العالم، والذي سيطر من خلاله على الآخرين ليرسم الصورة التي سيكونها في نفسه ولنفسه عنهم"<sup>12</sup>. في رحم الثقافة التي ينتجها الإنسان تشكل ملامح هويته، وتتفاوت درجات الوضوح والإبهام في الصورة المتشكلة عن الذات وعن الجماعة بداخل تلك الثقافة، ومن خلالها وعبرها، بحب طبيعة الثقافة المنتجة. فبقدر ما تتعلق هذه الثقافة بالحياة الداخلية للجماعة، وبقدر

انغماسها في الواقع المادي والروحي لها، بقدر ما تكون الصورة ناصعة ومتوهجة. ولست أرى أدبا أكثر لزوما للحياة الداخلية للفرد والجماعة من الأدب الشعبي بكل أصنافه، وأشكاله الجمالية.

يعبر الفرد عن تجاربه الاجتماعية وعن موقفه من الواقع المعاش، وعن رؤيته للعالم بكل صدق ودون تحفظ من خلال أشكال التعبير الشعبي المتنوعة. وقد أبدع جملة من الطقوس الاجتماعية والعاداتية، يعبر من خلالها عن الحاجة الماسة للفرح والتنفيس عن المكبوتات النفسية، ويمارس قيمه المقدسة، وابتدع أنماطا ثقافية قادرة على حماية مكونات هويته التي تتهددها الأشكال الثقافية الدخيلة. إن افتتاح العالم على الأجنبي الذي يسمم الهوية الثقافية من خلال تهجينها بعناصر دخيلة، يمكنه أن يشكل اختراقا لحدودنا واعتداء على مقدساتنا، وعبوراً لعباتنا، ولذلك تأتي الممارسات الثقافية الشعبية للتصدي لمثل هذه المحاذير، من خلال إشباع الحياة الروحية للجماعة والاحتفاء بذاكرتها الجمالية والتاريخية والفكرية.

من ناحية أخرى، يتصدى الأدب الشعبي لكل الظواهر الاجتماعية السلبية داخل المجتمع الواحد. إننا نعلم أن المجتمعات العربية ذات المرجعية الإسلامية اكتسبت بعض العادات السلبية التي تتنافى مع جوهر الدين الصحيح، وأخلاق الجماعة المؤمنة. وتأتي النكتة بوصفها أداة شعبية للنقد الاجتماعي لتحارب هذه الظاهرة من خلال التشجيب وإثارة السخرية. وفي هذا السياق، تخطر بالبال نكتة هادفة،

من الأهمية بمكان استحضارها. "قالك خطرة طلبة تطلب في جامع معبر بالطلالبة ودايما يدولها دراهمها كي شافينها رقيقة وقصيرة، خطرة جا واحد ملياردير قالها لوكان نعطيك شاك فيه مليار شا ديري بيه، قاتلو نبي جامع ونطلب فيه وحدي"<sup>13</sup>. هناك إدانة لبعض العادات السيئة الدخيلة على الجماعة المسلمة، والتي تتنافى مع قيمها، ومقدساتها؛ من بينها الاتجار بالقرآن الكريم من طرف من يُسمون طلبة. هذه الفئة الانتهازية تقرأ القرآن في المآتم والجنائز مقابل أجر مادي. ومثل هذا السلوك دأب الناس على إدانته لتعارضه مع مبدأ الإخلاص للعقيدة الصحيحة. وفي المتن الوارد أعلاه، تُسلط تلك الجماعة على متسولة وتسلبها ما تجنيه من تسولها، بغير حق. كما توجد إدانة صريحة لظاهرة التسول في المجتمع الجزائري، وعند عتبات المساجد. يستغل المتسولون العاطفة الدينية للمتريدين على المساجد من أجل سلب أموالهم، وهم ينتقلون من مسجد إلى آخر حتى لا يُعرفوا فينكشف أمرهم. إنهم أشخاص مجندون من جهات مشبوهة من أجل جمع المال، ويتقاضون مقابل ذلك جزءا من المال الذي يجنونه. وتضمن لهم الجهة المستخدمة وسائل النقل والإيواء، والعلاج. هذه المظاهر السلبية، وفي حالة تقشيبها في المجتمع تشكل انتهاكا لمقدساته وتشكيكا في قيم التضامن التي تحكم العلاقات بين الأفراد.

النكتة أيضا، والتي يراود منها الإضحاك يمكنها أن تكون أداة للنقد السياسي، وإدانة الظلم

الكرم والتضامن الاجتماعي. يجتمع أهل القرية قيمينون ألعاب الفروسية، ويطلقون الرصاص تعبيرا عن البهجة الاجتماعية، والخروج عن نمط الحياة الرتيبة، ويظهرون من المهارات والتظاهرات ما لا يسمح بها العرف الاجتماعي في غير هذا المقام. وهم يكرزون هذا الاحتفال كل عام. فهو طقس للتسامح وللاتفاف حول الجماعة والتمسك بقيمتها وعادات أسلافها.

الأغنية الشعبية هي أيضا ممارسة ثقافية تحفي بالهوية الثقافية للجماعة التي ينتمي إليها المنشد. وتعبّر عن ذلك بكلمات منتقاة، ونابعة من رحم البيئة الأصلية للمغني ولجماعته، وباكثر الأدوات بساطة، بعيدا عن الحداثة المدمرة والذات المبتورة، والمستلبة. في الأغنية الشعبية يعلو صوت المغني، لا تشوبه أصوات ناشرة، أو إيقاعات مصطنعة، أو ألوان مزيفة، أو ديكور ما بعد حداثي. إنها المقاومة المحمومة للأغنية المعاصرة التي تخترق تحصينات الهوية الوطنية، بكلماتها وإيقاعها وألوانها الصناعية، التي تخفي قبح العالم، وتزيّف الحقائق، وتداري تعاسة المجتمع. إنها القناع الذي يخفي انحطاط مجتمع الحداثة، ويدعو إلى تشييء الإنسان، وتسليع الثقافة والدعوة إلى الاستهلاك غير العقلاني، خدمة للرأسمالية المتوحشة. من هذا المنظور، وبالنظر إلى الأغنية المعاصرة التي تستحضر نموذج الأغنية الغربية، تتضح الأهمية البالغة للأغنية الشعبية بوصفها الأداة التاريخية الواعية للحفاظ على هوية الشعب، وقيمه التاريخية والجمالية.

الاجتماعي، وتقبيح التهميش وتزديل المستبد. يمكن استحضار النكتة التي تقول "قالك خطرة واحد سقسي واحد: قالو تعرفش قصر العدالة وين جا؟ هيا رد عليه: القصر جاي لهيه، بصح العدالة عمري ما سمعت بيها"<sup>14</sup>. إن الإنسان البسيط، الذي يعيش في الحظيظ الاجتماعي، وإن كان يعيش الإقصاء السياسي، إلا أنه يتمتع بوعي اجتماعي وسياسي لا يخطئه الإدراك، وإن وسائل الاحتجاج لديه على بسلطتها نافذة وخارقة للتحصينات الطبقيّة والإيديولوجيّة. إنه يشعر بغياب العدالة الاجتماعية، ويكابد الإقصاء والتهميش، ولكنه غير مُغيّب عن الواقع، بل إنه يدينه ويشجبه، ويتهمك منه بأسلوبٍ ساخر.

تنتج النكتة الشعبية بوصفها شكلا من أشكال الاحتجاج الاجتماعي "لحمة ثقافية قائمة على التضامن الاجتماعي العفوي والبدهي"<sup>15</sup>. إنها دعوة للالتفاف حول قضية عادلة، وفكرة صائبة وقيمة أخلاقية عليا، ومنهج حياة هادفة، وهي أيضا أسلوب للعيش المشترك في كنف الجماعة المتضامنة، والمتلاحمة، والممسكة بعضها ببعض. إن من شأن الممارسات الثقافية الشعبية أن تعزز وحدة الجماعة، وتنمي فيها الاحتفاء بالقيمة الأخلاقية العليا، وبالهوية الجماعية الأصلية. فالحفلات الشعبية التي تقيمها القرى والأرياف عند أضرحة الأولياء الصالحين على سبيل المثال، والتي تُذبح فيها الذبائح، وتقام فيها المآدب في أجواء بهيجة، وضمن التقاليد الموروثة، من شأنها أن تعزز قيم

منبعها الإنسان الأول. وإن التسامح وقبول الآخر، وطيبة النفس وكرمها هي الأخرى سلبية هابيل.

في حكاية الحمار والذئب شيء من هذا المعنى؛ يتظاهر الذئب بالاعتلال، ويترجى الحمار أن يحمله على ظهره، لأنه يتأذى من إحدى قدميه، وينجح في كوب الحمار، ويشعر في الأكل من طعام الحرائين دون أن ينتبه له الحمار. وفي حكاية "العنزة والذئب"، يحتال هذا الأخير بتقليد صوت العنزة، وينجح في التهام اثنين من أجداثها الثلاثة. كذلك يفعل الذئب مع اليمامة، إذ يهددها إن هي لم ترم له بالطعام، بأن يهز جذع الشجرة ويسقطها هي وفراخها. وتصدق اليمامة، فكانت تارة ترمي له ببعض طعامها وأحياناً ترمي له أحد فراخها<sup>18</sup>. إن مما يرشح عن هذه الحكايات الخرافية، التي نتلقاها للتنفيس عن صرامة الحياة الجادة، أن الشر غريزة في الإنسان. فلكي يحصل البشر على الخيرات ويحققوا مصالحهم يجتريحون كل ما تبيحه لهم قوتهم وذكاؤهم. فالخير لا يمكن التفكير فيه بمعزل عن الشر، والشر هو وسيلتنا للبقاء على قيد الحياة؛ فوجود الأنا لا يتحقق إلا من خلال نفي الآخر. ومن هنا، ينظر سارتر إلى الآخرين على أنهم الجحيم، لأن وجودهم نفي لوجودي، واعتداء على حقّي في الحياة. إن ثنائية الخير والشر في شكلها البسيط والعملية تسكن الحكاية الشعبية، وتحقق للمتلقى فائض المعرفة، وتدعونا للتأمل في جدلية الحياة والموت والقبح والجمال واللذة والألم،

تضطلع الممارسات الثقافية الشعبية بوظيفة اجتماعية بالغة الخطورة. "إنها تقوم بتحسيس الأفراد بضرورة تقويم أخلاقهم، وإلزامهم بالمحافظة على العادات والتقاليد، فهي تعمل على التماسك الاجتماعي، وربط الصلة بين الأفراد، وتعزيز انتمائهم الاجتماعي"<sup>16</sup> والاحتفاء بقيم الأسلاف لمواجهة الغزو الثقافي والحدثة السقيمة.

لقد دأب الناس على تلقي الحكاية الشعبية على أنها "مجرد خرافات بالمعنى القدحي، أو هذيان دوره هو تلهية الأطفال، فليس لها بالتالي ما تعلمنا إياه عن الإنسان والمجتمع؛ في حين أنّ حقب الدهر الطويلة التي قطعها تدل على ارتباطها بروح الإنسان وقربها منه بل وتجذرهما في حياته إلى الآن"<sup>17</sup>. لقد حاولت الفلسفات الحديثة والقديمة أن تشرح جوهر الإنسان الثابت/المتغير، غير أنها لم تتمكن من سبر أغواره ونوازه الداخلية بالشكل الذي فعله السرد والحكي الشعبي الذي يقف على جوهر الكائن البشري بمتناقضاته ومفارقاته الأكثر عمقا وأصالة. ولذلك يتجه علماء النفس والمحللون النفسانيون إلى استحضار المرويات الشعبية والأساطير القديمة للمجتمعات محل الدراسة، بوصفها مصدرا خصبا لتحليل البنية النفسية للإنسان وأنماط سلوكه وتفكيره ورؤيته للعالم. ولقد عدوا أنّ قيم الشر والخير منبعهما قصة قابيل وهابيل. ففي قاف الأول القتل والقذف وفي هاء الثاني الهدوء والهناء. إن النزعة العدوانية والرغبة في قتل الآخر والانتقام منه،

والحضور والغياب، والحب والكراهية. إننا نتعلم من حكايات الجدّة أثناء الاستعداد للنوم، ما يعكف عليه الفلاسفة والعلماء الليالي الطويلة دراسة وتحليلاً وتفكيراً. وبذلك تغرس فينا الحكاية الشعبية في المحافل العامة، أو في فراش النوم، حبّ الفضيلة، وقيم الخير والعدالة والجمال، والدّكاء والحذر من كلّ ما يهدّد سلامتنا الجسدية. فالشرّ يحيط بوجودنا في كلّ منعطف. من أجل ذلك نتعاطف مع الخيّرين ومع ضحايا العدوانيين، ونفرح عندما تنتصر الشخصية الخيرة، ونغضب لما يعلو الشر. نعود إلى قصّة الذّئب الذي احتال ليركب الحمار ويخدعه ويأكل غذاء الحرائين. فللحكاية بقيّة دالة. سيحتال الحمار على الذّئب لإعادة التوازن للعلاقة. يذهب الحمار إلى باب المغارة التي يسكنها الذّئب ويتمدّد متظاهراً بالموت. تنظلي الحيلة على زوجة الذّئب، فتشدّ الحمار بحبل وتعهده في قدم الذّئب، ليتعاونوا على جرّه إلى الدّاخل وأكله. وعندما ينتصب الحمار واقفاً ويهرول باتجاه الحرائين، مجرّجاً معه الذّئب، وهكذا يقع المحتال في يد الضحية، فيتعرّض إلى السلخ والقتل من قبل الفلاحين<sup>19</sup>. كثيراً ما ينتصر الشرّ انتصاراً مؤقتاً. فنأسف لذلك، ونتمنى تغيير موازين القوى، وعندما تميل الكفّة باتجاه إرادة الخير وعلو الحقّ، نشعر أنّ للحياة معنى، وللأشياء منطقاً، وأنّ العقلانية لها الكلمة العليا، وأنّ علوّ الباطل مؤقت؛ وإذا ما حصل فلا بدّ من تعاطي الأسباب لتغيير العلاقات لصالح الخير والعدالة والجمال.

إنّ الحكاية الشعبية توقظ فينا دوافع الخير، وتنمي الإحساس بعدالة القدر، (ربي ما فيه غير الخير)، وتعلّمنا تذوّق الجمال. فتعاطف مع الضّعفاء، وننتصر لقضائهم، كما تعلّمنا الحكاية الشعبية الاعتزاز بقيمتنا، والتمركز حولها، بوصفها رؤيتنا للعالم الصّائبة والعقلانية. فالآخرون على ضلالة، والشرّ كلّ الشرّ في صقّهم. لقد صوّر لنا أسلافنا الشخصيات التاريخية التي نعظمها في شكل أبطالٍ خارقين، فعلي بن أبي طالب قاهر الكفّار، وحليف الأخيار، وعندما تنتهك حرمة الدين يمعن في قتل الأعداء حتّى تسيل دماؤهم أنهاراً، وصلاح الدّين الأيوبي، محرر القدس، ومنتمصر للمقدّسات، وقاهر للصليبيين. تعجّ الحكايات الشعبية بسيرة هؤلاء الأبطال التاريخيين، وتصور ملاحمهم في أشكال جمالية يختلط فيها العجائبي بالتاريخي، والواقعي بالخياالي، والغيبّي بعالم الشهادة. وهي حكايات تحتفي أيما احتفاءً بأمجاد الأسلاف. فهم مرجعيتنا وقودتنا وفخارنا الحضاري، وعزّنا بين الأمم. ينشأ الطفل على سماع هذه الحكايات منذ طفولة وعيه، ويتكوّن لديه حسّ عميقٌ بالذّات، وبخيريتها، ومركزيتها في الكون مقارنةً بآخريها. ينشأ الطّفل بفعل هذه الحكايات موثوق الصّلة بعالمه وبنظامه الثقافي، وبنظام القيم العائليّة والمجتمعيّة، يتعصّب لقومه بطريقة آليّة، ويتعاطف مع شركائه في الوطن والدّين، واللّغة. توظّف الحكاية الشعبية شخصيات عجائبيّة لغايات جماليّة ورمزيّة، وأحياناً، تنشأ لغات

مشتركة بين الإنسان والجن والحيوانات البرية والأليفة، لتجعل من الكائنات الحية عالما أحادي القطب، يحتل فيه الإنسان المركز، وتحتل فيه قيمنا مركز المركز. إن وحدة الوجود المنبئة في بنية الحكاية الشعبية ترتقي بنا إلى مصاف الكائنات الخيرة، والتي تكون بقية الموجودات خادما لها، وأثرا من آثارها، ومعايشة لشريعته. وبقدر بساطة البنية السردية في الحكاية، بقدر عمق الدلالة فيها، وانفتاحها على سلسلة من التأويلات متجددة بتجدد اللقاءات والبيئات الثقافية المتنوعة داخل وحدتها الانثروبولوجية. تستجيب الحكاية إلى النظام الثقافي الذي أنتجها، فلا يمكن لي ذراعها لتدل على ما لا تحمله في غير عالمها وبيئتها ومجتمعها. ولذلك فإن الحكاية من بين الأجناس الأدبية المحكية التي تستعصي على العولمة، لأنها لصيقة ببيئتها الأنسية، وبمجتمعها الداخلي، وبأنماط حكمها ولغتها المشفرة.

إننا مطالبون بالدخول في صلب البنية العميقة للأدب الشعبي من أجل أن ندرك ملامح هوية الجماعة التي أنتجت هذا الموروث أو ذاك. فإذا كانت اللغة هي أهم مكونات الهوية الفردية والجماعية للجماعة التي أنتجت هذا الموروث أو ذاك، فإن ما يميز الأدب الشعبي عن الأدب الرفيع، هو أن الأول منتج من اللغة الأم، التي ينطق بها الطفل بمجرد أن يستقبل عالمنا. هذه اللغة هي التي يخاطب بها عالمه المحيط به، وهي التي يؤسس بها وجوده من خلال الألفاظ والكلمات الممزوجة والمشبعة عاطفياً وروحياً.

إننا نستجيب للغة الأم التي تعلمناها في الطفولة المبكرة، والتي صنعنا بها تجاربنا مع العالم الخارجي، أكثر مما نستجيب للغة المدرسية التي كثيرا ما تحدثنا عن خيالاتنا وإخفاقاتنا، ومتاعبنا مع الحياة العملية أو المدرسية. ويبقى الأدب الشعبي "خزاناً لقيم الناس، إنهم يحرصون من خلاله، بوعي أو من غير وعي، على أن تبقى تلك القيم حية تتوارث وتنتقل من جيل إلى جيل للحفاظ على تماسك الجماعة وامتداد هويتها في الزمن"<sup>20</sup>. أول ما يسجل في هذه المقولة، أن اللغة التي ينطق بها الأدب الشعبي هي لغة جامعة للسواد الأعظم من الناس؛ فهي بالتالي تحظى بالتمثيل العام للفئات العريضة من الناس. ثم إنها تعكس القيم الأكثر انتشارا وسط الجماعة؛ من هذه الناحية نجادل أن الأدب الشعبي هو فعلا خزان لقيم الأمة وهو صوت الروح فيها؛ بإمكانه أن يحفظ وحدة الجماعة وانسجامها وتآلفها والتفافها حول مكر واحد.

#### الخاتمة:

إن الأدب الشعبي بكل أشكاله الجمالية، المعقدة منها والبسيطة، يعود في ميلاده إلى ميلاد الحياة الإنسانية على البسيطة. ومن هنا، فإن تاريخه هو تاريخ الإنسان فوق الأرض. والحديث عن علاقته بالهوية هو تحديد الحديث عن علاقته بكل أشكال الوجود الإنساني في شكلها الفردي أو الجماعي، البراني أو الجواني، السطحي أو العميق. إن الذي نعثر



عليه في التاريخ هو التّصوُّص كما قيلت ورُوِيَتْ، أو أُثْنِدَتْ وتُعَيَّنَ بها في المحافل الشعبيّة.

في هذه الورقة العلميّة حلّلنا أشكال التعبير اللغوي في الأدب الشعبي، وقدرتها على احتواء التراث الإنساني بكلِّ أقاله وأعبائه الفلسفيّة والجماليّة والأخلاقيّة. وقد خلّصنا إلى أنّ الشعوب كلّها وخلال تاريخها الطّويل أنتجت أدبا شعبياّ متميِّزا عن الأدب الرسمي في لغته وجماليّاته، متميِّزا بصدقهِ وعفويّته، وشموله؛ وهو لذلك معنيّ بترجمة معالم الهويات الفرديّة والجماعيّة، بفضل علاقته بطفولة الإنسان، وطفولة الحضارات عموما. وبفضل علاقته بالطّقوس الدينيّة والممارسات الكرنفاليّة والأعياد الوطنيّة والقوميّة. من هذا المنظور يُعدّ هذا النّوع من النّشاط حافظا للوحدة الوطنيّة والتضامن بين الجماعة الواحدة، التي تشترك في النظام الثقافي ومعايير القيمة الأخلاقيّة، وأنماط السلوك والعادات الغذائيّة والدّائفة الجماليّة، ومفهوم الخير والشر، والقبح والجمال. كلّ ذلك وأكثر منه نجدُ له أثرا في الممارسات الثقافيّة ذات الطّابع الشعبي، والتي تعود إلى الحياة الأولى للجماعات الإنسانيّة ولا تزال تُمارس، بتحوّلات جزئيّة وسط

الفلاسفة وهم الخاصّة، الجمهور له معنى سلبى يراد له السطحيّة أو البلاهة أو عدم القدرة على فهم الحقائق النظريّة المجردة ولا يقدر إلا على التشبيه والتجسيم (انظر هامش ص15 من كتاب حسن حنفي "التراث والتجديد، س2012).

<sup>2</sup> - صالح جديد، المركز في الأدب الشعبي الجزائري، مقال ضمن مجلة الدراسات الثقافيّة واللغويّة والفنيّة، المركز الديمقراطي العربي، برلين، ألمانيا، العدد 16، ديسمبر 2020 ص104.

<sup>3</sup> - صالح جديد، المركز في الأدب الشعبي الجزائري، مقال ضمن مجلة الدراسات الثقافيّة واللغويّة والفنيّة، ص104.

<sup>4</sup> - بنزار سارجون، علم الأساطير مناهجه ومدارسه، ترجمة مبروك بوطقطوقة، مقال ضمن مجلة انثروبولوجيا، بجامعة باتنة، مجلد5 عدد9، جوان 2019، ص61.

<sup>5</sup> - ميجان الرويلي وسعد البازغي، دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط الثالثة 2012، ص337.

<sup>6</sup> - محمد القاضي وآخرون، معجم السرديات، دار محمد علي للنشر بتونس/ دار الفارابي لبنان/ دار تالة بالجزائر/ دار العين بمصر/ دار الملتقى بالمغرب، ط الأولى 2010، ص149.

<sup>7</sup> - نفسه، ص150.

<sup>8</sup> - محمود بوكفوسة، النكتة الشعبية ودلالاتها في تفعيل القيم الاجتماعيّة، مجلة العلوم الاجتماعيّة، المركز الديمقراطي العربي/برلين، العدد 7، ديسمبر 2018، ص153.

<sup>9</sup> - نفسه وص نفسها.

<sup>10</sup> - سمير خليل، دليل مصطلحات الدراسات الثقافيّة والنقد الثقافي، دار الكتب العلميّة، بيروت (دزن ذكر عدد ط والسنة) ص315.

<sup>11</sup> - نفسه ونفسهما.

<sup>12</sup> - سمير خليل، دليل مصطلحات الدراسات الثقافيّة والنقد الثقافي، ص315.

<sup>13</sup> - محمود بوكفوسة، النكتة الشعبية ودلالاتها في تفعيل القيم الاجتماعيّة، مجلة العلوم الاجتماعيّة، ص154.

<sup>1</sup> - عثمان الكعاك، المدخل إلى علم الفولكلور، وزارة الإرشاد في الحكومة العراقيّة، بغداد 1964، ص22.  
\*الجمهور هو لفظ مستعمل في تراثنا القديم على نحو معرفيّ خالص، ويعني العامّة، ويقابله العقلاء أو

- <sup>14</sup> - محمود بوكفوسة، النكتة الشعبية ودلالاتها في تفعيل القيم الاجتماعية، مجلة العلوم الاجتماعية، ص 156.
- <sup>15</sup> -م نفسه، ص 157.
- <sup>16</sup> - محمود بوكفوسة، النكتة الشعبية ودلالاتها في تفعيل القيم الاجتماعية، مجلة العلوم الاجتماعية، ص 157.
- <sup>17</sup> -محمد حجو، الإنسان وانسجام الكون، سيميائيات الحكيم الشعبي، الدار العربية للعلوم ناشرون / دار الأمان، الرباط / منشورات الاختلاف-الجزائر، ط الأولى 2012، ص 220.
- <sup>18</sup> -م نفسه، ص 229.
- <sup>19</sup> -محمد حجو، الإنسان وانسجام الكون، سيميائيات الحكيم الشعبي، 232.
- <sup>20</sup> -محمد حجو، الإنسان وانسجام الكون، ص 241.